بين الرافعي والعقاد

- ١ -

قرأت ماكتب الأستاذ سيد قطب فى العددين السالفين من الرسالة ، وكنت حَرِيًّا أَلَّا أعبأ بما يكتبُ عن الرافعى فى أوانِ حولِ وفاته ، وقد تهيأ أهله وأحباؤه وأصحابه تتلفَّتُ قلوبهم لذكراه الأولى بعد أن سَلَّه الموت من بينهم اغترارًا .

والأستاذ سيد قطب قد أبى له حسن أدبه ، وجميل رأيه ، ومروءة نفسه ، ونُبْل قلبه ، وشرف مقصده ، وإشراق نقده إلّا أن ينبش ماضى الرافعى وما سلف من أمره ، ليستخرج حلية يتحَلّى بها إذ يكتب عن خصومةٍ بين رجلين : أما أحدهما - أنسأ الله فى أجله وأمتع به - فما برح يتلطف للناس بما يستجيد من عمل يجدد به مَطَارِفَ آخرته ؛ وأما الآخر - رحمةُ الله عليه - بين يدى ربه يتقرب إليه بعمل قد أبلى به أثوابَ دُنْياه . فلولا أن الميت لا يدفع عن نفسه فى ساعة موته مثل الذى كان يدفع فى أيام حياته ، وأن ذكر الحى أقرب إلى الناس من ذكر الميت - لكان جديرًا بنا أن ندع الأستاذ المهذب الفاضل يتكلم بالذى يهوى على ماخيَّلَتْ له . فليس للأدب اليوم من الحرمة ، ولا فيه من النبل ، ولا عليه من الحياطة والحرص ما يحفز أحدًا للمراصدةِ دونَه أن يُمتَهن أو يُسْتَرْذَل .

هذا ... وقد جعل الأستاذ الفاضل يستثير دفائن الإِحَن [١] ، والأحقاد التى كانت بين الرافعى والعقاد ، ليتخذ منها دليلَهُ الذى يفزعُ إليه فى أحكامه !! على الرافعىّ . لا بل على قلب الرافعىّ ونفسه وإيمانه بعمله وعقيدته فيه !! ثم لم يرض بذلك حتى نفخ فيها من روح الحياة ، ما جعلها ممَّا يكتب الأحياء عن الأحياء للإِيلام والإثارة ، لا للجرح والتعديل والنقد ؛ وكأن الفتنة عادت جَذَعَةً [٢] بين الرافعى نفسه وبين العقاد . ولقد بدا لبعض الناس رأىٌ فيما كتب الأستاذ

(*) الرسالة ، السنة السادسة (العدد ٢٥٤) ١٩٣٨ ، ص : ٧٨١ - ٧٨٣

(١) الإحن : جمع إِحْنَة ، وهى الحقد والضغينة

(٢) جذعة : يقال : أعدتُ الأمْر جَذَعًا ، أى جديدا كما بدأ ، ولا يكاد يُسْتَعمل إلا فى الشرّ .

المهذب ، ولكنا نفيناه إذ سُئلنا عنه ، فنحن نعلم أن العقاد لا يرضى اليوم أن يكتب مثل هذا الذى كُتب عن الرافعى . ولقد ساء ظن امرئ بالعقاد ألا تكون للموت فى نفسه حرمة ، حتى يكون هو يعين عليه أو يرتضيه أو يسكت عنه إلا سكوت الغَضَبِ والاستهانة .

فنحن إذ نكتب فى ردِّ كلام هذا الأستاذ الفاضل سيد قطب لا نبغى أن نسدِّدَ له الرأى فيما يحب أن يرى ، فما علينا ضَلّ أو اهتدى ، ولا أن نقيم مذهب الرافعىّ على أصله وقد ذهب سَببُه وبقى أدبه ؛ ولا أن نسوء العقاد حفيظة نتوارثها له عن الرافعى أو من ذات أنفسنا ، فما من شيمتنا مثلُ ذلك ؛ كلَّا ، بل نكتب لنميط الأذى عن حُرَم الموت ، وكفى بالموت حقًّا وجلالًا .

ورحم الله الشعبىّ فقد كان يقول : « تعايش الناس زمانًا بالدين والتقوى ، ثم رُفِعَ ذلك فتعايشوا بالحياء والتذمم ، ثم رفع ذلك فما يتعايش الناس اليوم إلا بالرغبة والرهبة . وأظنه سيجئ ماهو أشد من هذا » . ولقد جاء وفات ما نحن فيه ظنونَ الشعبى . فما يتعايش الناس اليوم إلا بثَلْبِ الموتى !

وإلا فما الذى رمَى فى صدر الأستاذ سيد قطب بهذه الغضبة الجائحة من أجل العقاد ؟ ألم يكتب الرافعى للعقاد يوم كان يملك يكتب ويقول ؟ أو لم يكتب العقاد للرافعى ماكتب ؟ ثم نامت الثائرة ما بينهما زمنًا كان حده الموت . يقول الأستاذ : إنه – هو لا العقاد – « كان مستعدًّا للثورة والحنق ، لو تناول بعض هؤلاء – يعنى الرافعى ثم مخلوفًا – أدَبه ! بمثل هذا الضيق فى الفهم ، والاستغلاق فى الشعور ... » . أفكان كلام سعيد العريان – وهو يؤرخ أحقادًا قد سلّها الموت إذ سَلَّ أسبابها – هو الذى أثار هذا الحىّ المستعد للثورة على ذلك الميت العاجز عن دفع الثورة ؟ ثم ما الذى يحمله على أن يُلبسَ هذه الثورة جلد النقد ؟ والعجب أن يثير ماكتب « سعيد » حيًّا ليس شيئًا فى الخصومة بين الرافعى والعقاد ، وهو ليس يثير العقاد أحدَ طرفى الخصومة ، وهو الذى يملك أن يقول لسعيد أخطأ أو أصاب ... ! أشهد أن ما بالأستاذ قطب النقد ، ولا به الأدب ، ولا به تقدير أدب العقاد أو شعره . فما هو إلا الإنسانُ وجهٌ يكشفه النور ويشف عما به ، وباطنٌ قد انطوى على ظلمائه فما ينفذ إلى غيبه إلا عِلْمُ الله .

وأنا أقدّمُ بين يدى كلامى حقيقةً لابدّ من تقريرها عن الرافعى والعقاد ، وذلك أن الرافعى – رحمه الله – لو كان يرى العقاد ليس بشىء البتة ، وأن أدبه كله ساقط ذاهب فى السقوط ، وأنَّ وأن ... مما كان يكتب ليغيظ به العقاد من جراء العداوة التى ضربت بينهما – لما حمل الرافعى عناء الكتابة فى نقد العقاد وتزييف أدبه وإبطال أصل الشعر فى شعره . ولو كان العقاد يرى الرافعى بعض رأيه الذى كتب لما تكلف الرد على الرافعى ولا التعرض له . وكم من رجل كتب عن الرافعى وعن العقاد ونال منهما وأوجع ! ولأنه ليس يدخل فى حسابهما ، ولا يقيمان لأمثاله وزنًا ، ولا يعبآن بقوله ونقده وثورته – فقد تركاه يقول فيكثر فيملُّ فيسكُت . ولم يكن بين أحد منهما وبين مثله كالذى كان بين الرافعى والعقاد .

فالرافعى والعقاد أديبان قد أحكما أصول صناعتيهما ، كلٌّ فى ناحيته وغرضه ، وأفنيا الليالى والأيام والسنين فى ممارسة ما هو فيه وإليه ، وكلاهما يعلم عن عمل صاحبه مثل ما يعلم عنه ، ولا يُظن بأحدهما أنه يجهل قيمة الآخر . فلما كانت العداوة بأسبابها بينهما بدأت قوّة تعارضُ قوة ، ورأىٌ يصارع رأيًا ، وكان فى كليهما طبيعة من العنف والعُرام [1] والحدّة ، وَوَلِعَ العقادُ بإرسال العبارة حين يغضب على هِينتها صريحة لا صنعة فيها ، وأُغرى الرافعى بالسخرية والمبالغة فى تصوير ما نصبه لسخره وتهكمه على طريقة من الفن ؛ فمن ثمَّ ظهرت العداوة بينهما فى النقد . وفى أذيالها أذى كثير وغبارٌ ملؤه القواذع والقوارص من اللفظ ، وعلى جنباته صورٌ ينشئها أحدهما لصاحبه للكيد والغيظ والحفيظة ، لا يراد بها إلا ذلك . ولقد شهدتُ أن الذى كان يكتبه الرافعى عن العقاد لم يكن عندى مما يحملنى على الحط من منزلة العقاد التى كان ينزلها فى نفسى ، بل أستيقن أن الذى يكتبه إنما يراد به النيل من غيظ العقاد لا من العقاد نفسه . وعلى مثل ذلك كنتُ أجد ما يكتبه العقاد عن الرافعى ، فلم يكن نيل العقاد من الرافعى – وأنا أحبه – مما يحملنى العداوة له أو يدفع بى إلى الغيظ والحنق والثورة .

وخليق بنا وبآدابنا أن نطوى الآن سيئة رجلين قد تفارط أحدهما فى غيب الله . وبقى الآخر تحوطه الدعوة الصالحة بطول البقاء وامتداد الأجل وسداد العمل .

---

(١) العُرام : الشِّدَّة والبأس .

والكلمة الأولى من كلمتى الأستاذ سيد قطب ، إنما تدور رحاها ورحى (بغضائه) للرافعى – أو كما قال – عن نفى الإنسانية من ذلك الإنسان رحمة الله عليه ، وخلوه منَ النفس ، وفقدانه الطبع ، وفقره إلى الأدب النفسى – وما إلى ذلك من لفظ قد ضل عنه معناه ، وتهافت عليه حده – وأنه كان (رحمة الله عليه) ذكيًا قوى الذهن ، ولكنه كان مغلقًا من ناحية الطبع والأريحية ، وأن أدبه كان أدب الذهن لا أدب الطبع ، فيه اللمحات الذهنية الخاطفة ، واللفتات العقلية القوية ، ولكن الذى ينقصها أنه ليس وراءها ذخيرة نفسية ، ولا طبيعة حية ، إلى غير ذلك مما حفظه الأستاذ من شوارد اللفظ ، وأوابد المعانى ... وأسمع جعجعةً ولا أرى طحنًا [١] .

وأنا كنت أتنظر بالأستاذ أن يأتى فى كلمته الثانية بشىء من النقد يُنسى إليه ما قدم فى الأولى من سوء العبارة وشُنْعَة [٢] اللفظ فى ذكر الرافعى الميت ؛ ولكن خاب الفأل ، وجاءت الثانية تدل مَنْ يَغْفُل عن الدلالة البينة ، على أن هذا الأستاذ الجليل لا يزال يستملى ما يكتب من بغضائه . وهان شيئًا أن يكره الأستاذ الجليل رجلا كالرافعى حتى يأكله السُّلّ من بغضه ؛ ولكن الأمر كل الأمرِ حيث ذهب يزعم فيما يكتب أن هذه البغضاء التى يستملى منها هى النقد ، وأن أحكامه على الرافعى إنما هى أحكامُ قاضٍ ، لزم المتهم حتى أنطقه وأشهد عليه لسانه ، فاستوعب كلامه واستنبط الحجة عليه من ألفاظه ، واستوثق للتهمة من قوله ، ثم بنى (الحيثيات) من فحوى عباراته ، ثم حكم وما حكم على المتهم إلا كلامُه ، ولا شهد عليه إلا لسانُه .

فلهذا كان علينا لزامًا أن ننظر فى الذى أتى من كلام الرافعى . ثم قوله فيه ، واستنباطه الدلائل منه ، وتحليله نفس الرافعى من لفظه حتى جعله مستغلق الطبع مسلوب العقيدة ، ثم هو فوق ذلك لا يزال يبدئ ويعيد فى كلامه ذِكرَ أصدقاء الرافعى وأصحابه ويسخر منهم ويتحداهم ، ويحملهم على مركب وعر ، ويضطرهم بين خُطَّتى خَسْفٍ [٣] فى أحكامه على الرافعى ، ويخيرهم أن يختاروا

---

(١) طحنا : الطِّحْن : الطَّحِين ، فعيل فى معنى مفعول أى المَطْحُون ، « أسمع جَعْجعةً ولا أرى طِحْنا » مَثَلٌ .

(٢) شنعة : الشُّنْعَة ، شَنُع الأمر شَناعةً وشُنْعا وشُنُوعا : قَبُحَ ، فهو شنيع ، والاسم : الشُّنْعَة .

(٣) خُطَّتا خَسْف : أمران فيهما الهوان والبلاء والمكروه . وجاءت هذه العبارة فى شعر عبد الله ابن الزَّبِير (انظر ابن سلام : ١٧٦) .

للرافعىّ طرفًا من طرفين يحسب أنه يُلزمهم شناعةَ شناعاته التى سمَّاها أحكامًا على الرافعى . وسنتولّج فيما لا نحب ، لا كرامةً للأستاذ الجليل أو استجابة لدعائه ، بل لنميط الأذى عن نَفْسٍ مطمئنة لحقت بالرفيق الأعلى راضية مرضية .

ولولا أن يُقال هَجَا نميرًا ولم نَسْمَع لشاعرهم جوابا
رغبنا عن هجاء بنى كُلَيْبٍ وكيف يُشاتِم الناسُ الكلابا

* * *